إنما هو ضرب من الاحتيال للتهرب من تكاليف الدين ، وهيهات لا يتطلى على الله محال !

* * *

ومن يسر هذا الدين أنه لم يُقم بينك وبين ربك أية واسطة . وليس من شك فى أن ما تستطيع أن تتناوله بنفسك أيسر عليك وأدنى إليك مما لا تستطيع تناوله إلا بواسطة غيرك . فاذا زلّت بك القدم ، وقلّبك الشيطان فى المنكر ، أقبلت على ربك ، وسألته قبول توبك ، والعفو عما أسلفت من ذنبك ، مطمئناً إلى (أن الله يغفر الذنوب جميعاً) . ليس بك حاجة إلى من يمهد بين يديك سبيل المعذرة ، ولا من يعانى لك استخراج العفو والمغفرة

* * *

وبعد ، فان من يسر هذا الدين شدة تسامحه ؛ ولا يذهب عنك أن هذا التسامح إنما كان من أبلغ الأسباب فى عظمته

لا يدعوك الاسلام إلى كراهة ما يصدر عن مخالفك فى الدين لأنه يخالفك فى الدين ، بل يدعوك إلى أن تكره منه ما يُكرَه ، وتُقرّ منه ما يُحبّ ويُؤتَر ، فهو وأخوك المسلم فى هذا بمنزلة سواء

ولقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس جُبة رومية ، وقال تعالى فى كتابه الكريم : (وطعام الذين أوتوا الكتاب حلٌّ لكم وطعامكم حلٌّ لهم) ، ولا ريب فى أن لهذا ولهذا دلالة كان لها أعظم الآثار فى نهضة الاسلام !

لم ينفر المسلمون من مخالفيهم فى الدين ولا فى الجنس ، ولم يحتجز بهم تعصب عن مخالطتهم والاتصال الوثيق بهم ، والانتفاع بكفاياتهم والأخذ عنهم . ولم يكد يستقيم أمر الملك لهم حتى أقبلوا على علوم من سبقوهم فترجموها إلى لغتهم ، وجعلوا يتروونها ويشيمون الأذهان فيها ، ويطيعونها على غرار عقولهم ، ويزيدون فيها ما فتق الرأى والذكاء لهم . كذلك كان شأنهم فى الفنون ، فقد حذقوها أتم الحذق ، وبرعوا فيها أعظم البراعة ، وأداروها على أذواقهم ، حتى اتسق لهم منها فن خاص ؛ وناهيك بالفن العربيّ الذى ما برحت آياته مسطورة على جبين الزمان

* * *

أرجو أن تكون قد اطمأننت بعد هذا ، إلى أن اليسر فى الاسلام ، كان من أبلغ الأسباب فى عظمة الاسلام

عبد العزيز البشرى

بين الشك واليقين

للأستاذ أحمد خاكى

تطغى على العالم اليوم موجة من الشك تكاد تجترم بقية اليقين التى يحرص عليها الفلاسفة . وقد أسرفت الجماهير فى الشك حتى لقد أصبح هو القاعدة لكل تفكير ، وأصبح اليقين شذوذاً لهذه القاعدة ؛ وحتى ليكاد الانسان يجزم بأننا نجتاز عصراً من عصور السفسطة التى فقدت عندها المعانى والأمثلة العليا أكثر قيمتها . وقد عانت تلك المعانى وهذه المثل العليا ما عانت لاختلاف وجهات النظر بين فريق وفريق ؛ وكل فريق يذهب إلى ما يذهب إليه لأنه يرضى حاجة ملحة فى نفسه ؛ فهو يتعلق به لأنه يرى فيه إرضاء لنزعاته الجامحة سواء أكانت نبيلة أم وضيعة . وقد أدى ذلك إلى أن تضعضعت قواعد الايمان وحل الشك فى كل بيئة سياسية أو اجتماعية يتذرع به كل مفكر حتى تستوي له الغاية التى يريد . ولعلنا لن ندرك حاجة العالم اليوم إلى اليقين حتى نبحث أصول الشك ، ولأننا نريد أن نقيم مثلاً أعلى يتألف قلوبنا ، فينبغى أن نتعمق البحث فى أصل ذلك الاضطراب الذى يصطخب به العالم

والحق أن الشك فى العصر الحاضر قد أدرك ما أدرك من القوة لأنه ليس لبوساً علمية خالصة . فقد ذهب كل فريق إلى الرأى الذى يرضيه ، لكنه جاهد فى إرضاء تفكيره بأن اتخذ من العلم مسوغاً يضعف ويقوى . وأصبح الشك لذلك علمياً يقوم على دراسات شتى . ووجد المفكرون والسياسيون فى تلك

الدراسات معيناً لا ينضب من القضايا يستدلون بها على ما يعملون مهما نبا عن جادة الخلق القويم . وسنحاول فى هذه المجالة أن نفصل تلك الدراسات المتشكلة حتى نرى سبيلا واضحة إلى دراسة المثل الأعلى الذي نحاول أن نقيمه فى مصر

* * *

والشك قد ضرب فى أطواء الفكر الحديث حينما حل علم النفس محل فلسفة الأخلاق . فقد أصبح هذا العلم بعد ذلك مورداً يستمد منه كل مفكر قواعد يفسر بها الظواهر العقلية والنفسية . ولقد أقامت الفلسفة قبل ذلك ما أقامت ، يؤمن الناس والعلماء بأصولها ؛ لكنهم لم يقفوا إلا قليلا يحاجون طبيعة الايمان . ولم يكن هؤلاء ولا أولئك يفرقون بين مراتب العقيدة ولا ألوان التفكير ، ولكن حينما أبديت للعالم أصول علم النفس بما تحملته من مباحث التحليل النفسى ، وبما تضمنته من وصف نفسية الجماعة ، وبما فرقت بين العقل الواعى وبين العقل الباطن — حينما أبدي كل ذلك تطرق الشك فى قيمة الفكرة ، وأصبح الناس لا يرون للعقيدة نفس السلطان الذى كان لها فيما مضى ، بل لقد ذهبت الكثرة من علماء النفس ووراءهم الجمهرة من سائر العلماء إلى أن الفكرة شىء والعمل شىء آخر

ويرجع الشك فى قيمة الفكرة إلى أن علم النفس الحديث يرى أن الانسان مسيَّر أمام جملة من العوامل التى لا يحكمها العقل بل هى فى الواقع مؤثرات ودوافع تدفع بالانسان إلى أعمال أكثرها قد تحرر من سلطان التفكير القويم . وإنما يسيّر الانسان عند هؤلاء الرغبة والعاطفة والمزاج قبل الفكرة والعقل والفلسفة . وقد كانت فلسفة الأخلاق تؤمن بأن لكل فكرة مَسيراً تنتهجه ، فهى لا تنتهى عند مجرد التفكير وإنما تمتد إلى العمل والتنفيذ . فالفكرة لها شطران من تعقل وسلوك ، ولا يكون لها أثر خلقى حتى تنقلب إلى هذا السلوك . لكن علم النفس حلّ فى تاريخ الفكر الحديث محل علم الأخلاق ، فباعد ما بين شطرى الفكرة ، وعالج الاحساس الضئيل مجرداً عن العمل ، وباين ما بين العقيدة والسلوك . وقد أدى ذلك إلى ذلك التناكر الذى نشهده اليوم بين ظهرانينا .

وعلم النفس لا يستطيع أن يخلق لنا مثلا أعلى لأنه غير قادر على تثبيت قِيَم الأشياء . ذلك لأنه علم وصفى يسير فى نطاق ضيق من التجارب التى تختلف على عقل الانسان وحسّه . ولأنه علم تجريبى ، فقد عالج حالات شاذة أو غير شاذة من غير أن يقيم معايير يستطيع المرء أن يتخذها لنفسه غاية أو سبيلا . فحينما طغى علم النفس على فلسفة الأخلاق فَقَدَ العالم كثيراً من الغايات الفلسفية التى كان قد استقر على الايمان بها . واستشرف قادة الفكر لحالة من الشك طافت بنفوسهم حتى أصبحوا يشكّون فى مبلغ عقائدهم هم أنفسهم .

وقد كان الفرد ضحية من ضحايا الدراسات النفسية ، لأنه تضاءل ثم تضاءل أمام دراسة الجماعة حتى لم يَعُد له إلا المكان الأدنى . ومن العجز أن نطالب الديمقراطية بما نطالبها به من تقدير المسئولية إذا كانت قد أنكرت المدرسة الحديثة حدود الفرد هذا الانكار . وإذن فالعبث بعينه هو أن نهتدى بعلم النفس فى سيرنا إلى المثل الأعلى ؛ والعبث بعينه هو أن نحاول تأليف غاية نبيلة تتألف أصوله . فعلماء النفس يصفون حالات الجماعة ونفسية الجماهير بما يحكمها من عقلية الرعاع ، وبما يشينها من العقل الباطن غير المفكر . وكان حقيقاً بكل ذلك أن يدفع بالعالم إلى الشك ، وأن يزعزع إيمان الناس فى سمو المثل الأعلى . فقد أصبح الفرد يرى نفسه غير الملوم ، لأنه يتخذ من وجوده فى الجماعة ذريعة للتزكية والتبرؤ .

ولم ينفرد علم النفس بين العلوم فى إنتاج ذلك الجو المتشكك الذى يكاد يعصف بالفكر الحديث ؛ فالتاريخ وعلم الاجتماع كلاهما يعاونه فى ذلك . أما التاريخ فقد حاول المؤرخون أن يطبقوا على حوادثه مقاييسهم العلمية . وما زالوا يفصلون فصوله ويؤصلون أصوله حتى خيل إليهم أنهم قد استخلصوا من صحائفه طرقاً علمية محددة . وفى كل ذلك غبن للفرد وتحيف من مكانه ، لأن التاريخ العلمى تنكرَ لفلسفة الخلق ، وجافى فكرة السلوك ، وازورّ عن تقدير الفرد ، وحاول أن يقيم قواعد تستمد سلطانها من الجماعة . وقل مثل ذلك عن علم الاجتماع الذى ينكر مسئولية الفرد ويلاشيها فى الإرادة العامة ، والذى يخلو من أصول خلقية تنشىء الفكرة وتخرج منها عملاً نافعاً طيباً ينتجه الفرد

والحق أن علم النفس والتاريخ وعلم الاجتماع كل أولئك علوم

تجريبية لا خير فيها إذا حاولنا أن نقيم منها مثلاً أعلى ، فهي لن تزيد إيماننا فى سمو الفكرة ، ولا عقيدتنا فى سيطرة العقل على العمل . وكلما أمعنا فى دراستها زادتنا شكاً فى أصول الخلق وفى فلسفة الحياة . فهى تعالج ظواهر نفسية أواجتماعية أو اقتصادية ، لكنها لا تأتى بجديد في قيم الأشياء ، ولا تخلق ميزاناً عادلاً لحقائق الخلق ؛ وإنما نفيد من هذه العلوم إفادة سلبية لأنها جميعاً تبسط لنا حالات النفس والاجتماع التى ينبغى أن نتجنبها ؛ وهى لا تمحضنا الإيمان فى فكرة من الأفكار ، لأنها تبسط الشروح التى تؤيد كل فكرة . فمنذ أن الإغراق فى دراسة مثل تلك العلوم هو السبب فى حالة الشك العلمى التى ملكت مذاهب التفكير على كل مفكر ، وهى التي وجهت كل فرد وجهة من لا يؤمن بشىء هو فى نفسه حسن أو جميل نافع ، حتى أصبحت الفكرة الحديثة ضرباً من ضروب السفسطة الخادعة . وذلك عندنا هو السبب فى التناقض الذريع الذى خلق ذلك النضال الكاذب حول ألفاظ تكاد تخلو من المعانى ، وحول معان لايدين لها الناس بالولاء

* * *

وكما أن فلسفة الخلق قد تلاشت فى علم النفس ، فكذلك قد تلاشت الفلسفة السياسية فى علم الاقتصاد . ذلك بأن العالم قد أعمته اقتصادياته عن المثل العليا التى أقامها الفلاسفة والحكماء ، وأسرف فى اتخاذ مبادئ الاقتصاد إنجيلاً لا يكاد يؤمن إلا به . فكما أن الفرد يرى فى أصول علم النفس أن إرضاء النزعات والرغبات فيه شفاء لما يحز فى النفس من ألم محض ، كذلك ترى الجماعات أن فى إرضاء رغباتها ونزعاتها الاقتصادية شفاء لما تعانيه من جفوة وشقاء . والاقتصاد كما هو الآن علم المنافسة الحادة على احتكار المادة والتطاحن على الكماليات ؛ وليس يخفف من حدته أي فكرة واضحة عن المعانى الأولى ؛ وليس ينهنه من شدته أى قوة دافعة إلى المثل الأعلى . وقد كان الاقتصاد نفسه معيناً يستمد منه المؤرخون وعلماء النفس ما يرونه من القضايا ليتشككوا فى قيم الخلق العام

* * *

تلك إذن هى الدراسات التى نفخت روح الشك فى العالم الحديث ، وزلزلت اليقين الذى استهدى به الفلاسفة الخلقيون والسياسيون عندما كان العالم أشد من ذلك إيماناً . وقد اضطربت قوائم السياسة والاجتماع والاقتصاد لهذه الحالة المتشككة ، لأن العلماء أنكروا قوة الخلق فى الفرد ، وأنكروا كذلك قوة الخلق فى الجماعة ، فأدى ذلك إلى حالة من الاستهتار بالمثل العليا يعانى منها الغرب ما يعانى اليوم . وحينما ينادى الفلاسفة فى أوربا بفكرة السلام ، وحينما يعلنون للملأ سخطهم على الحرب ، فليس لنا إلا أن نسخر من كل ذلك ، لأننا نعلم فى نفس الوقت أن قادة الفكر عندهم قد سوّغوا الحرب بآلاف من الأدلة التى استخرجوها من علم النفس والاقتصاد والتاريخ والاجتماع . وإذا سمعنا بعد ذلك عن العدل والإخاء والمساواة والمحبة فينبغي علينا ألا نؤمن بأن أوربا شديدة الايمان بكل ذلك ، لأن مذاهب عملية تناقض كل هؤلاء قد شاركت حياة نظمهم الاجتماعية والاقتصادية . وشبت معها وهى ما زالت تدرج فى عنفوانها مع المدنية الحديثة

والسياسة التى يؤمن بها الجمهرة من الناس قد تأثرت تلك الفلسفة العلمية التى أنتجتها دراسة تلك العلوم . وقد مشت الحضارة الغربية بيننا بما تحملته من كل ذلك ، فاشتعب الناس فى مصر فئات متنافرة يلاحون عن مذاهب لا أصل لها فى صميم الفكرة . وكانت نتيجة كل ذلك فوضى اجتماعية ضربت بجرانها فى كل وجه من وجوه الحياة عندنا . ولن نستطيع أن ندرس المثل الأعلى حتى نقرر المبادئ التى ينبغى أن نلتزمها فى حياتنا العقلية والسياسية والاجتماعية ، وحتى نقدر الحقائق التى نعنو لها ونستهدى بها . ينبغي علينا أن نقدر قبل كل شىء أصالة الرأى والشرف والصدق فى حياة الفرد . وينبغى علينا أن نقدر مبادئ الحرية والنظام والديمقراطية والقومية والعالمية فى حياة الجماعة . يجب أن يكون ذلك الخطوة الأولى التى نخطوها لتنشئة المثل الأعلى — هل نؤمن بكل هؤلاء ؟ أنؤمن ببعضها ولا نؤمن بالبعض الآخر ؟ هل ينبغى أن يكون إيماننا من النوع الفلسفى الفعال أم من النوع النفسى الكاذب ؟ كل ذلك يجب أن نقرره قبل أن نقيم بناءنا ، فاذا استوت نفوسنا على الايمان خلقنا فكرة لها أثر فى العمل ، وكونا عقيدة لها سلطان على السلوك

* * *

ولعل أول ما ينبغى أن نعنى به فى هذا السبيل هو تنشئة الفرد .

وقد أسلفنا أن تلك الدراسات المتشككة قد أنكرت ما للفرد من وزن فى حياة الجماعة حتى لقد أصبح الفرد يحتمي فى نتائج تلك الدراسات ، فيرى نفسه غير مسئول عن الحالة السيئة التى وجد نفسه فيها . وإذا كان مثل هذا الاتجاه قد أساء إلى الحياة السياسية والاجتماعية فى الغرب ، فإنه يفسد حياتنا العامة نحن أيضاً . وهو عندنا أفدح أثراً ، لأن الفرد من نفسه مضعضع مستضعف . فنحن إذن نبدأ بتنشئة الفرد ، لأن التنظيم العقلى عند الفرد أساس للنظام الاجتماعى العام . فبين عقلية الفرد وبين نظام الجماعة صلات تتوثق وتتوافق كلما أحسنت تنشئة الفرد . ولذلك فلا بد لنا من أن نلقنه فلسفة يقيم بها قِيماً ثابتة فى حياته . فلابد لنا من أن نكمل الدراسات التجريبية التي ذكرنا بدراسة الفلسفة الخلقية . ولابد لنا من أن نقيم أسساً لخلق الفرد من تربيتنا العامة ومن معايير خلقية خاصة نكمل بها دراساتنا فى التاريخ والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس

ثم علينا بعد ذلك أن نخفف كثيراً من غلوائنا فى تقدير الجماعة ما لها وما عليها ، لأن هذا فى نظرنا قد بعث سورة الشك التى أخذت بأكظام السياسيين والمفكرين فى العصر الحاضر . وإذا نحن حاولنا أن نتخذ طريقاً وسطاً بين الفرد والجماعة استطعنا أن نجد خطة مثلى تداول بين الطرفين . ولا مناص هنا أيضاً من أن نضم أصول الفلسفة السياسية إلى أصول الاقتصاد ، وأن نتخذ من ذلك الائتلاف معايير نطبقها على مبادىء السياسة والخلق العام . فاذا نحن خلقنا من كل ذلك فلسفة خلقية أو سياسية عامة كان ذلك كسباً فى سبيل المثل الأعلى

* * *

وبعد ، فاننا إذا تصفحنا تاريخ العقائد ، وإذا حاولنا أن نستخرج منها فلسفة خلقية أو سياسية ، فلن نجد خيراً من المثل العليا التى تنزل بها الاسلام . وقد بدأ الاسلام والعالم فى مثل ما عليه الآن من التهتّم والتشكيك ؛ لكنه ما لبث أن فاض نوره على العالم من أقصى الأرض إلى أقصى الأرض ، وتجسمت الفكرة الأولى في نظام خلقى للفرد ونظام خلقى للجماعة على أكمل ما يكون . فاذا نحن حاولنا دراسة المثل الأعلى فعلينا بتلك الرجعة إلى المعايير الخلقية التى قامت عليها سيادة المسلمين

وإذا قام قادة الفكر منا يوجهون حياتنا نحو قيم خاصة لحقائق الحياة ، فإن الجمهرة وراء هؤلاء القادة سوف يهفون إلى القيم الصحيحة التى تنزل بها الدين . ذلك عندنا نهاية السفسطة الخبيثة التى نعانيها اليوم ، وذلك تنظيم لحياتنا الاجتماعية التى زلزلتها الفوضى . والفرد عندنا في كل ذلك أساس ينبغى أن نبدأ به ؛ وتربيته غاية فى نفسها ؛ والدين يعترف أول ما يعترف بسمو الفرد وخطره ، ويجب أن نعترف نحن أيضاً بهذا السمو

ولعل الاسلام أكثر الأديان تحديداً لواجبات الفرد وحدوده ؛ ولعله أشد الأديان احتفاء بخلق مثل أعلى يحدو الجماعة . وفى الاسلام فلسفة خلقية واضحة ليس علينا إلا أن نجلوها ، وفيه أيضاً فلسفة سياسية تعتمد على طائفة من المعانى . وإنما مالِ بنا عن كل تلك الأصول إعاننا بما حاول الغرب أن يقيمه من مثل عليا . ومثل الدراسات التى عالجنا تسيطر على حياة الغربيين . وإذا نحن حاولنا أن نقيم مثلا أعلى فعلينا أن نتخذ منها مُعيناً ، ولكن علينا ألا نسمح لها بأن تكون أخاذة مسيطرة

والفلسفتان الخلقية والسياسية أفضل ما ندعو لها ، لكن دراستهما سوف تقتصر على القادة دون العامة ، وعلى المتعلمين دون الجهلاء . ولكن الدين عندنا هو الذى يجمع بين الفلسفتين ، ويوازن بين الفريقين ، ويؤلف بين القلوب ، ويبث فى النفوس روحاً فعالة لا تستأنى ولا تستريب . وهو بعد ذلك أشد ما نحتاج إليه ليقيم لنا قيماً أخرى غير التى أقامها الغرب ، ومعايير أخرى غير التى فرضها علينا الغرب

أحمد هاكى

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقـــلم

احمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشا